المحاضرةالأولى:
النزعة القبلية في الشعر الجاهلي

تمهيد:

يشكل الشعر الجاهلي تراثا لغويا وأدبيا، ووثيقة تاريخية يمكن من خلاله معرفة حياة العرب في شبه الجزيرة العربية، ونظمهم وكيف عاشوا في تلك القرون الغابرة، وكيف تشكل المجتمع آنذاك، انطلاقا من القبيلة التي ينشأ فيها العربي، إذ تُوفِّرُ له الحماية والملاذ، يقول الدكتور علي مصطفى عشا: "مثلت القبيلة خيارا حقيقيا للإنسان الجاهلي الذي وجد نفسه ي عالم مستغلق بسبب معطيات الجدب والحرب، وما نتج عنهما من مأسسة للقوة التي حاولت فرض معاييرها كمرجعية جوهرية يقوم عليها البناء القيمي في المجتمع القبلي الجاهلي" [1]؛ فقد فرضت الظروف القاسية على الإنسان الجاهلي أن يجد لنفسه تكتلا يحتمي بداخله يشبه مؤسسة سياسية اجتماعية، لها أعرافها وتقاليدها الملزمة للجميع.

ويُعد انتماء الفرد العربي إلى القبيلة مطلبا أساسيا في حياته، وعليه أن يظهر هذا الانتماء بشكل أو بآخر، "وكانت العصبية مظهرا لهذا الانتماء، وهي التي تستند بدورها إلى الكم ووحدة القبيلة في المصير والغاية" [1]، لا يمكن أن يعيش العربي إلا ضمن قبيلته التي يفتخر بها على غيرها من القبائل، إذ لم يكن العرب أمة واحدة، بل كانوا قبائل متفرقة متناحرة فيما بينها، لا تكاد تخرج من غارة حتى تدخل في أخرى، لسبب أو لآخر، وربما كانت الأسباب تافهة لا قيمة لها.

مفهوم العصبية القبلية:

تعددت مفاهيم العصبية القبلية في المراجع العربية التي تعرضت بالتأريخ والدراسة للشعر العربي في العصر الجاهلي، وسأقتصر على ذكر تعريفين أو ثلاثة، ولعل من أهمها ما أورده الدكتور شوقي ضيف في قوله بأنها "الرباط الذي يوثق الصلة ين أفراد القبيلة" [1]، حيث ينصهر الفرد فيها بدافع التعصب طلبا للحماية، ويتغلب الحس الجماعي على النزعة الفردية، "وأن الفردية التي عرف بها العربي لتبقى وتذوب في القبيلة، وهو يرى أن خير القبيلة خير له وعليه أن يتحمل أوزارها، وينعم بخيرها، ويهب لنصرتها حين يدعو الدّاعي، وهو مع قبيلته على كل حال" [1].وبهذا المفهوم فإن القبيلة تفرض سلطتها المطلقة على أفرادها مهما كانت الطبقة التي ينتمون إليها. وقد عبر الشاعر دريد بن الصمة عن معنى العصبية، في قوله [1]:

ومـــــا أنا إلا مـــــن غزيـــــة إن غـــــوت غويـــــت وإن ترشـــــد غزيـــــة أرشـــــد

وكان الشاعر يخضع نظام العصبية القبلية في تحديد موضوعات قصائده، ويؤكد الدكتور غازي طليمات هذا التأثير، بقوله: "وقد ترك هذا النظام القبلي أثره في أدب العرب، إذ دفع الشعراء إلى تسعير الخصومة بين القبائل، وخضب القصص والأمثال بتمجيد البطولة (...) حتى ضَجَّ أدب الجاهليين بقعقعة السيوف وتفجرت فيه صيحات المفاخرة والمنافرة،

---

[1] - علي مصطفى عشا: جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، ص01، وينظر، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص14.

[1] - المرجع نفسه، ص 01.

[1] - شوقي ضيف: تاريخ الأدب –العصر الجاهلي، "ط11" دار المعارف، القاهرة، مصر، 1960، ص 57.

[1] - يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ط5، مؤسسة الرسالة، الدوحة، قطر، 1986، ص 61.

[1] - الأصمعي: الأصمعيات، تح، أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط5، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص 107.

وزخر بفيض من المعاني والصور الحماسية، ضم بين جنبيه تاريخا غير رسمي يقتبس منه الأحفاد نخوة الأجداد ويتعهده الشعراء بالتجديد كلما رثَّ، وبالإضرام كلما خَبَا، إذ ينفخون فيه روح الحمية، ويؤثرون الغضب الأرعن على الحكمة الرّزَان فتعجز القلة المعقّلة كزهير بن أبي سلمى عن مغالبة الكثرة التي طغت عليها الجاهلية الجهلاء، كعمرو بن كلثوم، وقريظ بن أنيف ودريد بن الصمة" [1].

هذه هي مجمل الموضوعات التي عبر عنها الشاعر الجاهلي في إطار القبيلة، وبعبارة أخرى فإن الشاعر أصبح ملتزما بما تفرضه القيم الاجتماعية والسياسية التي تربى عليها في قبيلته، ويرى الدكتور حسني عبد الجليل يوسف أن الشاعر "معنيٌّ بالتشكيل البشري، وبالقيم الاجتماعية التي تضمن للقبيلة القوة والتفوق والاستمرار، وهي قيم تحقق لأبناء القبيلة الزهو بقبيلتهم، وقد عَبَّرَ الشاعر الجاهلي عن التزامه القبلي في صور متعددة، وكانت التوجيهات المباشرة أبرز ملامح هذا الالتزام" [2]. ويضرب مثلا على هذا الالتزام (العصبية القبلية) بأبيات شعرية لأوس بن حجر [3]:

فَقومـــــك تجهـــــل علـــــيهم ولا تكـــــن ... لهـــــم هرشـــــا تغتـــــابهم وتقاتـــــل

ومـــــا يـــــنهض البـــــازي بغـــــير جناحـــــه ... ولا يحمـــــل الماشـــــين إلا الحوامـــــل

ولا ســـــــابقٌ إلا بســـــــباق ســـــــليمة ... ولا باطـــــش مـــــا لم تُعِنْـــــهُ الأنامـــــل

أولا: منزلة الشاعر في العصار الجاهلي:

للشاعر منزلة كبيرة في قبيلته في العصر الجاهلي، لا تقل عن منزلة رئيس القبيلة، ويصور الدكتور غازي طليماتهذه المكانة المرموقة للشاعر بقوله: "الشعر إلى جانب وجهه الفني، كان يمثل في الجاهلية وجه الحياة الفكري: فيه الحكمة الرزان، والمآثر والمُثل وصاحبه سيد من أشراف القبيلة، إن احتكم الناس إلى رئيس القبيلة في أمور السياسة والحياة احتكموا إلى الشاعر في أمور العقل، واستفتوه في المشكلات والمعضلات، بل اعتقدوا أن فيه قوة سحرية خارقة، تحرك لسانه بما لا يحسنون، وشيطانا موصول النسب بعبقر، يبث في خاطره ما لا يخطر للبشر" [4]؛ فالشاعر محترم في قبيلته بما يمتلك من مواهب عقلية أرقاها فن الشعر؛ إذ لم يستطع كل الناس قول الشعر، فإن هذه الميزة تمنح الشاعر أفضلية كبيرة في قبيلته. ويؤكد الدكتور غازي طليمات على حاجة القبيلة إلى شاعر يدافع عنها ويرد على أعدائها، بقوله: "وحسبنا دليلا على منزلة الشاعر أن كل قبيلة كانت تحرص كل الحرص على أن ينبغ فيها شاعر كما تحرص اليوم كل دولة على أن يكون لها إذاعة وصحافة، وأنه إذا تم لها ما تريد أولمت الولائم ودعت الجفلى إلى المآدب، فأتتها الوفود مهنئة أو حاسدة، واتقاها الناس خائفين، وأن الرواة كانوا يلازمون الشعراء ليحفظوا ما يقولون، ويتعلموا مما يسمعون، ويثقفوا صناعة القريض، كما كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس بن حجر" [5]. إن اهتمام القبيلة بالشاعر يعني اهتمامها بالشعر، كونه سلاحا من أقوى الأسلحة في الدفاع عن شرف القبيلة، وفي بيان مآثرها، فهي لا تستطيع أن تتخلى عن الشاعر مهما كان من أمر، كما أن الشاعر لا يمكنه أن يعيش خارجها، ولذلك يلتزم بقوانين قبيلته وعاداتها، وأعرافها، ولا يخرج عنها مهما كلفه الأمر. وفي هذا يقول الدكتور يوسف خليف: "ومن هنا كانت منزلة الشاعر في قبيلته منزلة رفيعة، وأهميته لها

---

[1] - غازي طليمات: لأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، ص 32.

[2] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2001،ص 84.

[3] - أوس بن حجر: ديوان أوس بن حجر، تح. محمد يوسف نجم، (د، ط)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1980، ص99.

[4] - غازي طليمالت: الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ط1، دار الإرشاد، حمص، سورية، 1992، ص 53.

[5] - المرجع نفسه، ص 55.

أهمية كبيرة تصورها تلك الفرحة التي كانت تموج بها نفوس أبناء القبيلة إذ نبغ بينهم شاعر، فكانوا يتخذون من هذه المناسبة عيدا يحتفلون به، تمد فيه الولائم، وتقام حفلات الغناء والرقص والموسيقى، ويهنئ أفراد القبيلة بعضهم بعضا، وتفد عليهم وفود القبائل الأخرى تهنئهم" [1]. وقد تكلم ابن رشيق القيرواني عن هذا المقام الرفيع للشاعر في قبيلته، فقال: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيه، أو فرس تنتج" [2].

وبهذا فمكانة الشعر في نفوس العرب في الجاهلية جعلتهم يحتفلون بالشاعر إذا نبغ في نظم القصائد التي يحمي بها قبيلته وينافح عنها، فأصبح الشعر سلاحا تضيفه القبيلة إلى السيف والرمح والسهم، لا يقل عنها قيمة وقدرا؛ فالشاعر مدافع عن أمجاد قبيلته مسجل لمفاخرها ومآثرها، ومؤرخ لفضائلها وبطولاتها، يتغنى بانتصاراتها على غيرها من القبائل.

العقد الفني والعقد الاجتماعي:

بما أن الشاعر فرد من قبيلته يحظى فيها بالحماية؛ حيث تتكفل قبيلته برد من يعتدي عليه وإجارته سواء أكان ظالما أم مظلوما، وهذا ما أنتج عقدا اجتماعيا بينهما –كما أطلق عليه الدكتور يوسف خليف يلتزم فيها الشاعر بالدفاع عن قبيلته بلسانه (شعره)، وهو ما أنتج عقدا فنيا، يقول: "وكان من نتيجة هذا العقد الاجتماعي بين الشاعر وقبيلته أن قام بينهما عقد فني يفرض عليه ألا يتحدث عن نفسه، وإنما يتحدث عن قبيلته، أو بعبارة أخرى –يجعل من لسانه لسانا لقبيلته، ومن شعره صحيفة لها"[3]؛ حيث تحركه عصبيته لها، فهو ابنها الذي ينصرها بشعره، في كل مناسبة.

وبناء على هذا العقد حدد بطرس البستاني الأغراض الشعرية التي تدور فلك العصبية القبلية في العصر الجاهلي في أربعة فنون، هي: الفخر والحماسة، والمدح، والرثاء، والهجاء، يقول في هذا: "وكما وجهت القبيلة فارسها لمحاربة الأعداء والاثخان فيهم، ولحماية الأهل والمال، فكذلك وجهت شاعرها للإشادة بأيامها ومفاخرها، ولهجاء القبائل المعادية والرد على شعرائها، فاستأثرت المهمة القبلية بالأبواب الأربعة الرئيسة في الشعر الجاهلي، وهي: الفخر والحماسة، والمدح والرثاء، والهجاء فارتفع مقام الشاعر ارتفاع مقام الفارس" [4]. ويؤكد الدكتور إحسان سركيس أن "صفة القبلية"، قضية تمس الشعر الجاهلي في أغلب القصائد، يقول: "وبحسبنا التأكيد على أن التعبير عن الحياة القبلية في العصر الجاهلي، موضوع مشترك في معظم القصائد، وهذا ما يترك هذه المسحة من التشابه والرتابة سواء في الشكل أو في الموضوعات التي تخفف منها ذاتية كل شاعر" [5].

موضوع الفخر [6]:

---

[1]- يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص 173.

[2]- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، "ط5"، دار الجيل، القاهرة، مصر، 1981، ج1، ص65.

[3]- يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص 174.

[4]- بطرس البستاني: الشعراء الفرسان، ص12.

[5]- إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979، ص 107.

[6]- ابن منظور المصري: لسان العرب، مادة: (ف، خ، ر).

حظي غرض الفخر بتعريفات عديدة أذكر منها ما أورده الدكتور غازي طليمات وعرفان الأشقر في كتابهما: (الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه): "الفخر في الاصطلاح النقدي غرض من أغراض الشعر ينطوي على زهو الشاعر واعتزازه بنفسه وقومه، وهو وليد الأثرة والإعجاب بالذّات، وإذا كان الإنسان مفطورا على حب نفسه والإدلال بها وبمآثرها فالشاعر المتميز برهافة الحس، وفصاحة اللسان وجمال التعبير والتصوير أقدر من سواه على التفاخر وأجدر به" [1].إن الإعجاب بالذات والرغبة في إبراز محاسنها سبب ذاتي للشاعر ليفخر بنسفه أولا، ثم يحول هذا الفخر من ذاته إلى دائرة أوسع منه هي القبيلة، وبهذا يكون التعصب عاملا من عوامل ازدهار هذا الغرض في العصر الجاهلي.ويفسر غازي طليمات نشوء الفخر ضمن إطار الحياة الاجتماعية للعربي، فيقول: "ربما كان لطبيعة المجتمع القبلي أثرها القوي في نزوع الشاعر الجاهلي إلى الفخر، ففي هذا المجتمع البدوي يقدر الناس الحمية والأنفة والعزة وقوة العضل والعصب، والصبر على المكاره، ويتغنون بالشجاعة والاندفاع وحماية العرض، والذود عن الحمى، فتتحول هذه المعاني والقيم إلى دستور أو ما يشبهه الدستور يلتزمه البدو ويتواضعون على الأخذ به"[2].

الفخر القبلي:

يصنف الدكتور محمد النويهي غرض الفخر في الشعر الجاهلي ضمن دائرة القيم الاجتماعية التي تحكم حياة الشاعر العربي، فهو يفخر بقبيلته، يقول في هذا: "أن الشاعر مهما يكن من عبقريته وأصالته وتفرده، يتأثر في التكوين النهائي لطبيعته الفنية بأحوال الجنس والعصر التي عاش فيها، من سياسة ومعايشة مادية وفكرية"[3]؛ وهذا يفسر سطوة النظام القبلي على الفرد سياسيا واجتماعيا، وحتى فنيا. ويؤكد الدكتور محمد بن زاوي هذا بقوله: "ولا ريب أن دارس الشعر الجاهلي حين يستقرئه –أو معظمه- سوف يلاحظ وضوح ملكته الشعرية من أجلها ومرد هذه الغلبة للروح الجماعية في الشعر هو بلا شك طبيعة الصحراء القاسية، التي تحتم انتماء الإنسان إلى جماعته، ولواذه بحمايتها، كما تحكم عليه بالهلاك إذا تفرد وانعزل" [4]. ولم يكن للشاعر بد من أن ينتمي إلى قبيلته ويذوب في إطارها الاجتماعي والقبلي، وفي هذا السياق يؤكد يوسف خليف أن التعصب للقبيلة حتمية اجتماعية فرضا النظام الجماعي، "ولم يكن الشعراء في العصر الجاهلي إلا أفرادا من ذلك المجموع الذي كان يؤمن بالعصبية القبلية إيمانا جعل منها الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الجاهلي ومحورا تدور حوله أوضاعه وتقاليده ونظمه الاجتماعية، عليهم أن يؤمنوا بقبائلهم، وأن يقفوا عليها فنهم" [5]. ومعنى هذا أن القبيلة أو النظام القبلي في العصر الجاهلي يشكل إطارا اجتماعيا تذوب فيه شخصية الشاعر، وتقلُّ ذاتيته. لقد تعددت مظاهر العصبية القبلية في العصر الجاهلي، وبرزت في أشكال تعبيرية، منها الشعر الذي كانوا يتقنونه، ولعل أبرز مظاهرها الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب؛ فقد كان التفاخر والتعاظم سمة من سمات أهل الجاهلية، ويعلق أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" على هذه السمة التي تغذيها العصبية القبلية، بقوله: "وكان قد تم اعتقاد العرب بأنهم في أنسابهم يرجعون إلى أصول ثلاثة: ربيعة ومضر واليمن، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقا لهذه العقيدة" [6].

أسباب الفخر وعوامل ظهوره:

---

[1]- غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه وفنونه، ط1، مكتبة الإيمان دمشق، سوريا، 1992، ص 135.

[2]- المرجع نفسه، ص ص135-136.

[3]- محمد النويهي: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت)، ص 209.

[4]- محمد بن زاوي: الاستلاب في الشعر الجاهلي، مجلة الآداب العدد 08، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، ص 49.

[5]- يوسف خليف: راسات في الشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981، ص 173.

[6]- أحمد أمين: فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2011، ص

يبدو أن غرض الفخر كان أكثر الأغراض الشعرية بروزا في الجاهلية نظرا لارتباطه بالقبيلة وما تفرضه من قوانين على أفرادها، والشاعر واحد من أفراد قبيلته يسري عليه ما يسري على غيره من الناس، وقد تعددت الأسباب وتضافرت العوامل التي ساعدت على ظهور الفخر، يجملها إيميل ناصيف في قوله: "إن العربي وجد نفسه في خضم القتال الذي أصبح جزء من حياته اليومية (...) أليس التاريخ العربي قبل الإسلام حافلا بالحروب والثورات؟ فمن حرب البسوس بين تغلب وبكر إلى حروب بين قحطان وعدنان إلى حرب داحس والغبراء إلى حرب الأوس والخزرج (...) فما توقفت الأشعار الزاخرة بالعزة، فسالت قصائد خالدة في الفخر وانطلق فيها خيال الشعراء من قيود الواقع محلقا في سماء المغالاة، مضخما الوقائع، فإذا لشعرهم صدى لقعقعة السلاح، وصهيل الخيل، قرقعة خيول الحرب" [1].

من نماذج الفخر القبلي قصيدة (معلقة) عمرو بن كلثوم التغلبي التي قول فيها [2]:

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدّ ... نُطَاعِنُ دُوْنَهُ حَتَّى يَبِيْنَا

وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الحَيِّ خَرَّتْ ... عَنِ الأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِيْنَا

نَجُذُّ رُؤُوْسَهُمْ فِي غَيْرِ بِرٍّ ... فَمَا يَدْرُوْنَ مَاذَا يَتَّقُوْنَا

بِشُبَّانٍ يَرَوْنَ القَتْلَ مَجْداً ... وَشِيْبٍ فِي الحُرُوْبِ مُجَرَّبِيْنَا

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

مَتَى نَعْقِدْ قَرِيْنَتَنَا بِحَبْلٍ ... تَجُذَّ الحَبْلَ أَوْ تَقْصِ القَرِيْنَا

وَنَحْنُ الحَابِسُوْنَ بِذِي أَرَاطَى ... تَسَفُّ الجِلَّةُ الخُوْرُ الدَّرِيْنَا

وَنَحْنُ الحَاكِمُوْنَ إِذَا أُطِعْنَا ... وَنَحْنُ العَازِمُوْنَ إِذَا عُصِيْنَا

وَنَحْنُ التَّارِكُوْنَ لِمَا سَخِطْنَا ... وَنَحْنُ الآخِذُوْنَ لِمَا رَضِيْنَا

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْواً ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وَطِيْنَا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

---

[1] - إميل ناصيف: أروع ما قيل في الفخر والحماسة، ص 06.

[2] - الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 380.

بغـــــاة ظـــــالمين ومـــــا ظلمنـــــا لكنـــــــا ســـــــــنبدأ ظالمينـــــــا

يبدو الشاعر مفتخرا بنفسه، وبشجاعته كفرد "فقد ساد قومه وهو يافع طلعة، غير أنه لم يسرف في هذا الضرب من الفخر، ولم يحمله العجب على الجبروت، وإنما عرف كيف يرضي نفسه، ويرضي قومه على طريقة السياسي المحنك الذي يمجد الأمة ويعني نفسه، ويتغنى بالشعب ليحمله على الانصياع له ويشركهم في جلائل أعماله ليرددوا ذكرها وذكره صباح مساء واهمين أنهم شركاؤه في المحمدة، وهم في حقيقة الأمر يسبحون له" [1]. لقد حاول غازي طليمات أن يقدم الأسباب والدوافع التي تبعث الشاعر عمرو بن كلثوم على الفخر؛ حيث رد بعضها إلى الذاتية المرتبطة بالشاعر ولكنه عاد ليفسر كل ذلك بغاية الشاعر أو مقصديته من غرض الفخر وهو نيل الشهرة والسمعة مع قبيلته من خلال اضمحلال 'الأنا" في "النحن" يقول في ذلك: "إذا جاز لنا في دراسة الشعر القديم أن نحتكم إلى النقد الحديث، فسنتعير من الدراسات اللسانية والبنيوية ما يعيننا على إثبات ما نزعم قلنا: إن بناء القصيدة يبين لنا كيف يبتلع الكلي الجزئي، ويمتزج الخاص بالعام، ويفنى الفرد في الجماعة، ويطغى ضمير القوم (نحن) على ضمير الزعيم الفرد (أنا)" [2]. إن واقع الحياة الاجتماعية والسياسية الذي يعيشه الشاعر يحتم عليه أن يدمج ذاته في ذات أكبر منه هي القبيلة، وأن يظهر تعصبه لها، وهو أمر طبيعي.وبهذا يتحول الشعر إلى أداة فنية تمتزج فيها النزعة الفردية (الذاتية) بالجماعة امتزاجا تاما، كما يتحول من مجرد إعجاب الشاعر بنفسه إلى إعجاب بالقبيلة.

معاني الفخر القبلي:

افتخر الشاعر في الجاهلية بمجموعة من القيم التي تزيدهم تلاحما فيما بينهم لقتال لقبائل الأخرى "فقد ندب الشعراء فنهم للقيام بهذا الواجب القبلي، فبعثوا بأنفاسهم الملتهبة روح الحمية، وسعروا بصيحاتهم الغاضبة نار العصبية، ورغبوا أبناء القبيلة في الاندفاع إلى ميادين القتال مظلومين أو ظالمين معتدين أو منتقمين" [3]. ومن هذه القيم الرفيعة:

1- **القتال قبل السؤال:** ينطلق الشاعر في فخره القبلي يدعو قومه إلى القتال، وكان الفخر دافعه إلى الانتصار على أعدائه قبل المعركة، وإذا خسرت قبيلته أصبح الفخر دافعا للانتقام، ففي الجاهلية أراد بنو شيبان نفي بني مازن عن ماء لهم يسمى "سفوان"، وادعوا أنه لهم، فرد عليهم "ودّاك بن ثميل المازني" الشاعر، بقوله [4]:

رويـــد بـــني شـــيبان بعـــض وعيـــدكم تلاقـــوا غـــدًا خـــيلي عـــلى ســـفوان

عليهـــا الكـــماة الغـــرّ مـــن آل مـــازن ليـــوث طعـــان عـــن كل طعـــان

إذا اســـتنجدوا لم يســـألوا مـــن دعـــاهم لأيـــة حـــرب أم بـــأي مـــكان

---

[1]- غازي طليمات: الأدب الجاهلي، ص 400.

[2]-غازي طليمات: الأدب الجاهلي ، ص 400.

[3]- المرجع نفسه، ص 148.

[4]- ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تح عبد المجيد الترحيني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص59.

وليس للشاعر أن يخرج عن رأي قومه بعد أن يبرموا أمرا ولو كانوا على خطأ أو ظالمين، وهذا ما قصده دريد بن الصمة بقوله [1]:

أمـــــرتهم أمـــــري بمنعـــــرج اللّـــــوى فـــلم يســـتبينوا الرشـــد إلا ضحـــى الغـــد

فلـــما عصـــوني كنـــت مـــنهم وقـــد أرى غـــــــوايتهم، وأني غـــــــير مهتـــــــد

وهـــــــل أنا إلا غزيـــــــة إن غـــــــوت غويـــــت وإن ترشـــــد غزيـــــة أرشـــــد

حينما أشار عليهم بالسير قبل أن تلحق بهم قبيلة غطفان، فأبوا ونزلوا ليقتسموا، فلحقت واستردت إبلها وأصيب يد بن الصمة بطعنة سيف، وكاد يقتل، وقتل أخوه عبد الله.

2- النفرة الدائمة إلى الحرب والأخذ بالثأر: لم تكن العرب لتترك الثأر في جاهليتها، فهو مقدس بالنسبة لهم ولذلك يستعدون للقتال بشكل دائم، ودافعهم في ذلك هو العصبية القبلية، وفي هذا يقول دريد بن الصمة [2]:

فإمـــــا ترينـــــا لا تـــــزال دمـــــاؤنا لدى واتـــــر يشـــــقى بهـــــا آخـــــر الدّهـــــر

فـــــإنا للحـــــم الســـــيف غـــــير نكـــــيزة ونلحمـــــه حينـــــا، ولـــــيس بـــــذي نكـــــر

يغـــــار علينـــــا واتـــــرين، فيشـــــتفى بنـــــا إن أصـــــبنا أو نغـــــير عـــــلى وتـــــر

واستنفرت "ربيعة" "بني يربوع" على عبس، فأدركوهم وقتلوا من عبس مقتلة عظيمته قال فيها الشاعر "شميث بن زنباع" مفاخرا [3]:

يســـــائل بنـــــا عبســـــا إذا مـــــا لقيتهـــــا عـــــلى أي حي بالصرـــــائم دلـــــت

قتلنـــــا بهـــــا صـــــبرا شريحـــــا وجـــــابرا وقـــــد نهلـــــت منهـــــا الرمـــــاح وعلـــــت

فـــــأبلغ أبا حمـــــران أن رماحنـــــا قضـــــت وطـــــرا مـــــن غالـــــب وتغلـــــت

---

(1)- دريد بن الصمة: الديوان، تح، عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د، ت)، ص ص61-62.

(2)- دريد بن الصمة: الديوان، ص 96.

(3)- أحمد بن يحي البلاذري: أنساب الأشراف، تح، سهيل زكار، ورياض زركلي، ط1، دار الفكر العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ج12، ص 158.

كان النصر الذي تحققه قبيلة على أخرى مدعاة للفخر القبلي عند شعراء الجاهلية، وقد عرف هذا ضمن الحروب التي تدور رحاها لتطحن المحاربين المتعصبين لمنطق الأخذ بالثأر الذي تقدسه القبيلة.

3- السطوة على الملوك: تفتخر القبيلة في الجاهلية بخروجها عن سيطرة الملوك الذين كانوا يفرضون عليها الجزية، "وتعد هذا المسلك من المفاخرة والمجاهرة ربا من الأنفة والحمية الجاهلية" [1]. ولنا في قبيلة "تغلب" خير مثال، فقد كانت من أقوى القبائل في الجاهلية، ولم ترض بأن يفرض ملك الحيرة سلطته عليها، فقتله "عمروا بن كلثوم" الشاعر حينما حاولت أم الملك أن تستخدم أمه ليلى بنت المهلهل، ووصف كيف قتل الملك مفتخرا بذلك، فقال [2]:

وأيام لنـــــا غـــــر طـــــوال عصـــــينا المـــــلك فيهـــــا أن نـــــدينا

وســـــيد معشر ـــــ قـــــد توجـــــوه بتـــــاج المـــــلك يحمـــــي المحجرينـــــا

تركنـــــا الخيـــــل عاكفـــــة عليـــــه مقـــــلدة أعنتهـــــا صـــــفونا

4- الأنساب والأمجاد: يعد النسب والمجد القديم من أهم المفاخر التي يذكرها الشاعر في وصف صراعه مع القبائل المعادية لقبيلته، "وربما كان هذا الضرب من الفخر نوعا من الصراع بين النظامين الملكي والقبلي، أي نوعا من الصراع بين القبائل التي تعودت الغزو" [3]. وكان سبب هذا الفخر هو استهانة الملوك بسادة القبائل والتقليل من شأنهم، فيرد شعراء القبائل بذكر أمجادهم وأنسابهم مفتخرين بها، كما فعل الشاعر عمرو بن كلثوم حين قال [4]:

ورثنـــا المجـــد مـــن علقمـــة بـــن ســـيف أباح لنـــا حصـــون المجـــد دينـــا

ورثـــــت مهلهـــــلا والخـــــير منـــــه زهـــــيرا نعـــــم ذخـــــر الذاخرينـــــا

وعتـــــابا وكلثومـــــا جميعـــــا بهـــــم نلنـــــا تـــــراث الأكرمينـــــا

وذا الـــــبرّة الذي حـــــدّثت عنـــــه بـــــه نُحمـــــى ونحمـــــي المحجرينـــــا

ومنـــــا قـــــبله الســـــاعي كليـــــب فـــــأي المجـــــد إلا وقـــــد ولينـــــا

---

[1] - غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص 150.

[2] - الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، دار مكتبة الحياة، القاهرة، مصر، 1983، ص117.

[3] - غازي طليمات: المرجع السابق، ص 152.

[4] - الزوزني: المرجع السابق، ص 122.

5- السيادة وكثرة العدد والعتاد: تفتخر القبيلة في الجاهلية بكثرة عدد فرسانها وقوة عتادها من السيوف والسلاح، وبهذه القوة والتعداد تحصل السيادة على غيرها من القبائل، "فإن كل قبيلة كانت تفاخر بسيطرتها، وتدعي بسط سلطانها على الناس، وتربط السيطرة بالكثرة والسيادة والسلاح" [1]. يقول بشر بن أبي خازم المضري النزاري [2]:

وبـــــدلت الأباطـــــح مـــــن نمـــــير ســـــنابك يستشـــــار بهـــــا الغبـــــار

ولـــــيس الحـــــي حيّ بـــــني كلاب بمنجـــــيهم، وإن هربـــــوا الفـــــرار

وقـــــد ضمـــــزت بجزتهـــــا ســـــليم مخافتنـــــا كـــــما ضمـــــز الحمـــــار

وأمـــــا أشجـــــع الخنـــــثى فولّـــــت تيوســـــا بالشـــــظى لهـــــم يعـــــار

في هذه الأبيات يسرد الشاعر أسماء القبائل التي خضعت لسطوة قومه، ومنها: طيء، وبنو سبيع، والرباب، وبنو سعد ونمير، وسليم، ويصور جبنهم وخوفهم من قبيلة "نزار" التي كانت مسيطرة على هذه القبائل بقوة الفرسان وقوة السلاح والعدد الكبير الذي يرعب القبائل الأخرى. لكل غرض شعري سمات وخصائص يتميز بها، وإن كان الفخر جزءا لا يتجزأ من القصيدة في العصر الجاهلي، ومن أهم ما يميز الفخر القبلي ما يلي [3]:

- مخالطته للأغراض الشعرية الأخرى.
- ملابسته لهذه الأغراض تزيد من تماسك النص، ولا تفسد وحدة الموضوع في القصيدة.
- تفلت الفخر من رقابة العقل والمنطق، وانطلاقه في آفاق لا تحد من المبالغات التي يقبلها الذوق الفني في الجاهلية.
- التقاء الفخر مع المدح في صياغة المثل الأعلى للإنسان العربي الجاهلي.
- تسجيل الفخر لأحداث ووقائع تاريخية لأسماء الأبطال الذين صنعوا هذه الأحداث.
- يعد الفخر قمة التوتر العاطفي في الشعر الجاهلي.
- يتميز الفخر في جانبه الفني بالصور الحية المتحركة.
- قوة الإيقاع الصوتي والموسيقي.

2- **الهجاء:** احتل غرض الهجاء مساحة كبيرة في الشعر العربي القديم، وبخاصة في مرحلة الجاهلية، وارتبط هو الآخر بالقبيلة، يعرفه الدكتور نوري حمودي القيسي بأنه: "فن من الفنون القديمة في الشعر العربي، أوجدته المنافسات القبلية التي أرثها السعي وراء الكلأ والغدران، كما ساعدت على تسعيره الحروب المستمرة بين القبائل، فكانوا يتهاجون هجاءا

---

[1] - غازي طليمات: المرجع السابق، ص 153.

[2] - بشر بن أبي خازم: الديوان، تح. مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص63.

[3] - ينظر، غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص ص156-158.

مرا" [1]؛ حيث كان الصراع على أماكن الماء والكلأ سببا من أهم الأسباب التي ساعدت في ظهور فن الهجاء. وإذا كان المدح بيانا وإظهارا للمحاسن، فإن الهجاء على النقيض منه، فهو يبرز المساوئ والمثالب، يقول نوري القيسي: "والهجاء خلاف المدح، فهو يمثل ظاهرة السخط والسخرية، وتتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه لتكون مادته، فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشق منها مادته، والهاجي ينظر إلى خصمه لينشر مساويه، ساخرا منه، هازئا من سلوكه" [2].

ونظرا للمكانة الكبيرة لهذا الغرض الشعري في الأدب الجاهلي نجد قدامة بن جعفر جعله ضمن أقسام الشعر الستة في كتابه (نقد الشعر)، حيث قدم له تعريفا ونماذج شعرية [3]،، ومادام الشاعر فردا من قبيلته، فهو مستعد للدفاع عنها، وهجاء من يهجوها، فقد صرح الشاعر هدبة بن الخشرم بهذا في قوله [4]:

وإنّي من قضاعة من يكدها ... أكده وهي متّي في أمان

ولست بشاعر السفساف منهم ... ولكن مدرة الحرب العوان

سأهجو من هجاهم من سواهم ... وأعرض منهم عمن هجاني

وكما يقول حيان بن ربيعة الطائي [5]:

لقد علم القبائل إن قومي ... ذوو جد إذا لبس الحديد

وأنا نعم أحلاس القوافي ... إذا استعر التنافر والنشيد

وإنا نضرب الملحاء حتى ... تولي والسيوف لنا شهود

الشاعر في الجاهلية مستعد أتم الاستعداد لنصرة قبيلته، والدفاع عنها بشعره، إذا تعرض لها غيرها بالهجاء والنشيد، وهذا يدل على أن الهجاء كان أهم الأغراض الشعرية وأخطرها، تستخدمه القبيلة للرد على خصومها من القبائل الأخرى. "فالهمة الأساسية لشاعر هي الدفاع عن القبيلة" [6]. وبهذا تذوب شخصية الفرد (الشاعر) في دائرة القبيلة، لا ينفك عن التعصب لقومه، يقول الدكتور محمد حسين عن الهجاء القبلي: "لقد اعتمد الشعر في معظمه –الهجائي منه

---

[1]- نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، ط1، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، 1964، ص 250.

[2]- المرجع نفسه، ص 250.

[3]- ينظر، قدامة بن جعفر: "نقد الشعر"، محمد عبد المنعم خفاجي، (د، ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص113.

[4]- هدبة بن الخشرم، شعر هدبة بن الخشرم العذري، تح يحي الجبوري، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 1976، ص146.

[5]- أبو علي المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق غريد الشيخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص209، 210.

[6]- م. محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، (د، ط)، مكتبة الآداب بالجماميز، الاسكندرية، مصر، 1947، ص64.

والحماسي- على العصبية وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كالكرم، والشجاعة، والوفاء للجار، واتصال السؤدد في الأجداد، وعزة الأهل، ومنعة القبيلة وشدة بطشها"[1].ولكي يتسنى للشاعر أن ينظم في فن الهجاء، عليه أن يتمكن من مجموعة من العوامل المساعدة، أو المعارف، كعلم الأنساب والأيام والوقائع الكبرى في حياة القبائل، وأن يكون على علم بمناقب ومثالب القوم حتى يسهل عليه هجاؤهم إذا أراد أو مدحهم.

- الهجاء السياسي : (القبلي):

نظرا لكثرة حروب الجاهليين وخصوماتهم، وتعدد أسباب ذلك نشأ ما يسمى الهجاء القبلي، الذي يسميه الدكتور محمد حسين الهجاء السياسي، ويعرفه بقوله: "نقصد بالهجاء السياسي الهجاء الذي يقوم على العصبية للوطن، فيهاجم كل ما يؤذيه أو يهدد كيانه، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة أو أحدها، ولا يكاد يحس شخصيته إلا في حدود هذه المجموعة" [2]؛ فالوطن في هذا التصور هي القبيلة والتعصب لها وحدها، فالعصبية قانون مفروض على الشاعر، وقد بنيت حياته على هذا الأساس.

إن القصائد الهجائية كثيرة في الجاهلية، تصور كلها العصبية القبلية، وسأكتفي بذكر قصيدة "للأعشى" يهجو يزيد بن شيبان أحد زعماء بكر يوم ذي قار لما تعصب لقومه، ومال الأعشى إلى جانب قيس بن ثعلبة، يقول فيها [3]:

ودع هريـــــــرة إن الركـــــــب مرتحـــــــل وهـــــل تطيـــــق وداعـــــا أيهـــــا الرجـــــل

وهي معلقة مختارة ضمن أجود المعلقات التي قيلت في الجاهلية، يصفها الدكتور غازي طليمات، فيقول: "معلقة الأعشى ليست أطول قصائد الديوان، وإنما هي أوفاها حظا من الجودة وأحفلها بالغزل والفخر، وأوثقها صلة بحياة الشاعر" [4].

ويمكن تقسيمها حسب الأغراض الشعرية إلى ما يلي:

أ- الغزل : من البيت 1 إلى 21.

ب- الوصف: من البيت 22 إلى 34.

ج- اللهو والمجون: من البيت 35 إلى 44.

د- الهجاء والفخر: من البيت 45 إلى 66.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 65.

[2]- م. محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ص114.

[3]- الخطيب التبرريزي: شرح القصائد العشرمحمد محي الدين عبد الحميد، (د ط)، مكتبة محمد علي وأولاده، الأزهر، مصر، (د. ت)، ص 483.

[4]-غازي طليمات وآخرون: الأدب الجاهلي، ص 326.

هذا من حيث هيكل المعلقة، والأقسام الفنية التي تتكون منها –بصفة عامة- ولعل القسم الأخير هو الذي يعنينا في هذا الصدد، وهو "الهجاء" ومعه "الفخر"، لوقوعهما في سياق واحد، غير أن التركيز يكون على الهجاء.

ونظرا لجودة هذه المعلقة، فقد شرحها النقاد واللغويون قديما، ولقيت الاهتمام نفسه من الدارسين في العصر الحديث، فقد وصف غرض الهجاء الذي تضمنته المعلقة غازي طليمات: "لم يكن الأعشى يسف في الهجاء، ولا يسقط في معترك السباب، بل كان أكثر هجائه أقرب إلى "الهجاء القبلي"، وبعبارة عصرية كان أقرب إلى النقد السياسي" [1]، وربما يعود السبب في ترفع الأعشى عن السباب والفحش في القول إلى القيم الخلقية التي كانت فرضتها القبيلة، ورغبة منه في المحافظة على المكانة المرموقة التي بلغها بشعره.

جاء في المعلقة في هجاء يزيد بن شيبان قوله [2]:

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة ... أبا ثبيت، أما تنفك تأتكل

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ... ولست ضائرها ما أطّت الإبل

لأعرفنّك إن جدّ النفير بنا ... وشبّت الحرب بالطوّاف واحتملوا

كناطح صخرة يوما ليفلقها ... فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

حيث يستخدم الأعشى أسلوب الزجر مع يزيد بن مسهر الشيباني ليدفعه إلى ترك الحقد الذي يأكل قلبه للانتقام من قبيلة الأعشى، ويخبره أن همته لا ترقى به إلى النيل ممن هم أقوى منه، وقدم له تشبيها يحمل واقعية في الوصف، وتحد في الصيغة حينما شبهه بالوعل الذي ينطح صخرة كبيرة بقرونه ليفتتها، فماذا كانت النتيجة؟ لم تنفلق الصخرة، ولكن قرون الوعل تكسرت، ويعلق الدكتور غازي طليمات على هذا الهجاء قائلا: "فهو –يعني الأعشى- لا يهجو ابن مسهر ليدفع أذاه عن نفسه، بل ليحمي القبيلة كلها من هذا الأذى" [3].ثم إن الهجاء في العصر الجاهلي يتصل بالأيام والحروب، وإظهار البطولات التي حققتها قبيلة الشاعر، في حربها على القبائل العربية الأخرى، وفيه تشيع روح الجماعة، وتختفي ذات الشاعر، "فهذا النمط من الهجاء كان بمثابة روح جماعية، من خلال رؤية الشاعر" [4].

---

[1] - غازي طليمات: الأدب الجاهلي، ص 333.

[2] - لأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، ص 211.

[3] - غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص 334.

[4] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا، وفنونه، ص 102.

ويعدد الشاعر بعد هذا القبائل التي كانوا قد قهروها من قبل فيذكر أهل كهف من بني سعد، والجاشرية من إياد وأسد بن ربيعة وقشير بن كعب بن ربيعة، فيقول [1]:

سائل بني أسد عنا فقد علموا أن سوف يأتيك من أنبائنا شكل

واسأل قشيرا وعبد الله كلهم واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل

إنا نقاتلهم حتى نقتلهم عند اللقاء وإن جاروا وإن جهلوا

قد كان في آل كهف إن هم احتربوا والجاشرية من يسعى وينتضل

ثم يختم هجاءه بقوله [2]:

قد نخضب العير في مكنون فائله وقد يشيط على أرماحنا البطل

ومما سبق نستخلص أن شعر الهجاء تشكيل فني عبر بصدق على روح الجماعة التي كان يتحلى بها الشعراء في العصر الجاهلي، وقد تميز بمجموعة من السمات يمكن تلخيصها في مجموعة من النقاط الأساسية:

- شعر الهجاء صورة صادقة من البيئة العربية في العصر الجاهلي.

- إنه تخليد لمآثر القبيلة وأيامها وحروبها ضد أعدائها.

- الهجاء في الجاهلية يعكس موقفا للشاعر يتجاوز به النزوات الشخصية إلى التعبير عن روح الجماعة ويتمثل صبية في أسمى معانيها وأبرز مظاهرها.

- ترفع الشاعر عن مظاهر السباب والاسفاف في هجاء خصومه.

- وجود الهجاء في زمرة الأغراض الشعرية الأساسية في الشعر الجاهلي، ومعلقة "الأعشى" أكبر دليل على هذا.

3- **المدح:** يحتل غرض المدح في الشعر الجاهلي منزلة كبيرة، ذلك لارتباطه بالقبيلة، و "لم يكن مدح الجاهليين في معزل عن السياسة، وكيف يمكن أن يزدهر في معزل عنها وأكثر الممدوحين ملوك وأمراء وقادة وشيوخ قبائل؟ ولكل واحد من هؤلاء دولة لها انصار وأعداء، أو إمارة تحارب وتسالم، أو قبيلة ذات مصالح تعارضها مصالح قبيلة أخرى" [3].

---

[1]- أحمد الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعائرها، تح، محمد عبد القادر الفاضلي، (د، ط)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2005، ص213، 204.

[2]- المصدر نفسه، ص 217.

[3]- غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص172.

ويذهب الدكتور ناصر الدين الأسد إلى القول بأن القبيلة تفرض على الشعراء أن يمدحوها وذلك بالنظر إلى طبيعة الارتباط الذي بينها، يقول: "كان هذا الشعر (المدح) عند غير المتكسبين بالمدح واجبا قبليا تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته، أو واجبا خلقيا تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه" [1].ويدور "المديح" في الشعر العربي حول مجموعة من المعاني، مستمدة من البيئة العربية في شبه الجزيرة العربية، كان الشعراء يمدحون بالجود والعزة والشجاعة والإباء والفتك بالأعداء وإكرام الضيف ورعاية حقوق الجار وصفاء النسب" [2].

حيث كان الشاعر في الجاهلية معجبا بالقيم والفضائل المتعارف عليها في قبيلته، فكان يضع قبيلته في المقام الأول، ويسعى إلى الإعلاء من شأنها، فيمدح سيدها ويتغنى ببطولاتها، وكرمها، وصحة نسبها، والباحث في الشعر العربي القديم، يجد كمّا كبيرا من قصائد المدح، وبخاصة في العصر الجاهلي. قد اشتهر زهير بن أبي سلمى بمدحه للسادة والأشراف من شيوخ لقبائل العربية. يقول في مدح سنان والد هرم [3]:

لـــــو كان يخـــــلد أقـــــوام بمجـــــدهم أو مـــا تقـــدم مـــن أيامهـــم خـــلدوا

أو كان يقعـــد فـــوق الشـــمس مـــن كـــرم قـــــوم بـــــأولم أو مجـــــدهم قعـــــدوا

وقال يمدح هرم بن سنان [4]:

بـــل اذكـــرن خـــير قـــيس كلهـــا حســـبا وخيرهـــــا نائـــــلا وخيرهـــــا خلقـــــا

وذاك أحـــــــــــزمهم رأيا إذا نبـــــــــــأ مـــــن الحـــــوادق آب النـــــاس أو طرقـــــا

قـــد جعـــل المبتغـــون الخـــير في هـــرم والســـــــائلون إلى أبوابـــــــه طرقـــــــا

مـــن يلـــق يومـــا عـــلى علاّتـــه هرمـــا يلـــق الســـماحة منـــه والنـــدى خلقـــا

لـــــو نال حيّ مـــــن الدنيـــــا بمـــــنزلة وســـط الســـماء لنالـــت كفـــه الأفقـــا

ومن أفضل شعر المديح عندزهير بن أبي سلمى ما جاء في معلقته حين مدح "هرم بن سنان" و "الحارث بن عوف" اللذين سعيا في الصلح بين عبس وذبيان، يوم "حرب السياق" واللذين حقنا الدماء وتحملات الديات [5]:

ســـعى ســـاعيا غـــيظ بـــن مـــرة بعـــدما تـــــبزّل مـــــا بـــــين العشـــــيرة بالدّم

---

[1]- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1956، ص622.

[2]- سراج الدين محمد: مديح في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، ص06.

[3]- الأعلم الشنتمري: شعر زهير بن أبي سلمى، تح فخر الدين قباوة، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1970، ص 227-228.

[4]- المصدر نفسه، ص 72.

[5]-الأعلم الشنتمري: شعر زهير بن أبي سلمى ، ص 14.

فأقســـمت بالبيـــت الذي طـــاف حـــوله رجـــال بنـــوه مـــن قـــريش وجـــرهم

يمينـــا لـــنعم الســـيدان وجـــدتما عـــلى كل حـــال مـــن سحيـــل ومـــبرم

تـــداركتما عبســـا وذبيـــان بعـــدما تفـــانوا ودقـــوا بيـــنهم عطـــر منشـــم

وقـــد قلـــتما إن نـــدرك الســـلم واســـعا بمـــال ومعـــروف مـــن الأمـــر نســـلم

فأصـــبحتما منهـــا عـــلى خـــير مـــوطن بعيـــدين فيهـــا مـــن عقـــوق ومـــأثم

يعلق الدكتور غازي طليمات على أبيات زهير –في معرض حديثه عن أنواع المدح، فيذكر المدح للشكر، فيقول: "قد يكون الصنيع الجدير بالشكر مكرمة ينتظم خيرها كثيرا من الناس، فتكون أجدر من معروف ينفع الشاعر وحده، وأولى المكرمات بثناء الشعراء، وأبعدها أثرا في حياة الناس ما صنعه الحارث بن عوف وهرم بن سنان إذ أصلحا بين "عبس" و "ذبيان" بعد أن كادت الحرب أن تطحن الفريقين" [1].وهنا يبرز الدكتور غازي طليمات البعد الاجتماعي لغرض المدح، عند زهير بن أبي سلمى، كما يتجلى من أبيات زهير أنه ينشد المثل الأعلى الذي ينبغي أن يكون عليه الرجل المثالي، أو سيد القبيلة، الذي يتميز بالفضيلة، ولارجولة.

وقد تعددت دوافع المدح في الشعر الجاهلي، بحيث تبرز كلها إعجاب الشاعر الجاهلي بالفضائل والقيم الرفيعة، ومن أهم هذه الدوافع:

1- الشجاعة وسرعة الإغاثة: مثل قول زهير بن أبي سلمى يمدح قوم سنان بن حارثة المرّي [2]:

إذا فزعـــوا طـــاروا إلى مســـتغيثهم طـــوال الرّمـــاح لا ضـــعاف ولا عـــزل

بخيـــل عليهـــا جِنَّـــةٌ عبقريـــة جـــديرون يومـــا أن ينـــالوا فيســـتعلوا

وإن يقتلـــوا فيشـــتفي بـــدمائهم وكانـــوا قـــديما مـــن منـــاياهم القتـــل

عليهـــا أســـود ضـــاريات لبوســـهم ســـوابغ بـــيض لا تخرّقهـــا النّبـــل

[1]- غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، ص165.

[2]- زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص 84.

وقد ارتبط مدح زهير بن أبي سلمى بالتكسب، فكان الحصول على المكافأة دافعا على المدح.

2- الكرم والبذل: وقد كان الكرم من أهم الصفات التي تستحث الشاعر على مدح سيد القبيلة، ومنه قول زهير في هرم بن سنان والحارث بن عوف [1]:

إذا الســـنة الشـــهباء بالنـــاس أجحفـــت ونال كـــــرام المـــــال في الســـــنة الأكل

رأيـــت ذوي الحاجـــات حـــول بيـــوتهم قطينـــــا حـــــتى إذا نبـــــت البقـــــل

هنـــالك، إن يســـتخبلوا المـــال يخبلـــوا وإن يســـألوا يعطـــوا، وإن يســـيروا يغلـــوا

وفـــيهم مقامـــات، حســـان وجـــوههم وأنديـــــة ينتابهـــــا القـــــول والفعـــــل

3- عراقة النسب: يعد النسب في عرف الجاهليين أثمن شيء في حياتهم، "وما يرتبط بالنسب من حفاظ على العرض، وبراءة من الفواحش والأدناس" [2] ولمكانة النسب أشاد به زهير، وهو يمدح "هرم بن سنان" واصفا إياه بكونه مجدا متوارثا، فقال [3]:

قـــوم ســـنان أبـــوهم حـــين تنســـبهم طـــابوا وطـــاب مـــن الأولاد مـــا ولدوا

وقد تعددت دوافع وأسباب المدح في الجاهلية؛ حيث عرف العرب في جاهليتهم بأنها أصحاب فضائل وقيم خلقية واجتماعية وسياسية، كما عرفوا باعتزازهم الشديد بها، وهي كثيرة إذ إن المدح كغرض شعري يحتل مساحة كبيرة أو هي الأكبر في الشعر الجاهلي.

وقد تميز المدح في الجاهلية بمجموعة من الخصائص الفكرية والفنية يمكن إجمالها فيما يأتي [4]:

- ارتباط المدح بالحياة القبلية العامة، وتصوير جوانبها، فهو صورة واقعية لحياة الجاهليين في حربهم وسلمهم.

- اختلاف معاني المدح حسب منزلة الممدوح.

- نقل الأحداث التاريخية وسرد أيام العرب.

- عناية المدح بتسجيل العلاقات القائمة بينهم كقبائل عربية وبين غيرهم من فرس وروم.

---

[1] - زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص87.
[2] - غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص168.
[3] - زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص44.
[4] - غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص175.

- احتفال المدح بالقيم والمثل العليا التي تشكل معها الضمير العربي والوجدان الأخلاقي العربي.

- اتصاف المدح بالمبالغة في وصف الممدوح وتصوير خصاله.

- مزج المدح بالقصص التاريخي.

وفي ختام هذه المحاضرة يمكن ان نصف الشعر الجاهلي بأنه فن نشأ وترعرع في أحضان الفكر القبلي، الذي يصدر عن واقع القبيلة، ومناقبها، وإنسانيتها في مجموعة من الأغراض الشعرية، كالمدح، والفخر، والهجاء، والرثاء، ولم يكن الشاعر في الواقع الشعري الجاهلي يفكر إلى بضمير القبيلة أو الجماعة التي ينتمي إليها، ولئن اتسم شعر الجاهلية بالنمطية والرثابة فذلك راجع –أساسا- إلى القيود التي كانت تفرضها العصبية القبلية، سواء ما تعلق بالشكل الفني أو هيكل القصيدة، أو بالموضوعات الشعرية التي ترتبط بقاسم مشترك، هو "الأنا الجماعية"، والوعي القبلي.